وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

البلاغة والتطبيق

تاليف
الدكتور احمد مطلوب
الدكتور حسن البصير

طبعة ثانية
١٩٩٩

جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

البلاغة والتطبيق

تأليف

الدكتور أحمد مطلوب　　　الدكتور كامل حسن البصير

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ　　　١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

البلاغة من علوم اللغة العربية، وقد كانت السبيل المفضي إلى فهم كتاب الله وكلام العرب، ولذلك أولى القدماء هذا الفن عناية كبيرة ووضعوا فيه دراسات كثيرة اتسمت بالاصالة والمنهج السديد. ولولا جنوح الحياة الادبية في القرون المتأخرة إلى التقليد لظلت البلاغة نابضة بالحياة ترفد الاديب بكل بديع، ولبقيت معلما من معالم التطور والتجدد. ولكن ما أصاب الادب من ذبول أورثها جموداً تمثّل في شروح التلخيص وبعض ما عرف من كتبها في تلك العهود.

وقد قامت محاولات جادة في هذا العصر لاعادة الحياة إلى البلاغة وربطها بالادب الحديث، ولكن تلك المحاولات لم تثمر كثيراً لانها لم تكمل ما بدأه السابقون وانما انصرفت إلى وضع المناهج من غير أن تمس الموضوعات أو تحاول بحثها من جديد. ولعل من اسباب ذلك ان بعض أصحاب تلك المحاولات لم يتعمقوا درسها، وكان المرحوم أمين الخولي أقدرهم على النهوض بالبلاغة لولا وقوفه عند منهج فن القول.

وطالبُ اللغة العربية في الكلية لا يحتاج إلى رسم المناهج قدر حاجته إلى الاصول التي تنير سبيله وتبصره بمواقع الكلام، وأول ما ينبغي أن يعرفه الأسس العامة التي تقوم عليها البلاغة كما استقرت في علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ومن هنا كان منهج الدراسة بكليات الآداب في جامعات القطر العراقي، يقوم على معالجة هذه العلوم الثلاثة إلى جانب المهاد التاريخي الذي يكشف عن نشأة البلاغة وتطورها ليكون الطالب على بينة من أمر هذا الفن الذي نشأ ملاحظات عامة ثم استوى علما ذا قواعد وأصول. وهذا الكتاب أربعة أبواب:

الأول: النشأة والتطور، وقد شمل مقدمة في تاريخ البلاغة العربية وتطورها، ودراسة المؤثرات فيها كالقرآن الكريم وكتب التفسير واللغة والنحو والادب والفلسفة، وما نتج عن ذلك من اتجاهين تمثلا في المدرسة الكلامية والمدرسة

الادبية، واحتوى هذا الباب دراسة تاريخية لمصطلحي الفصاحة والبلاغة وتطورهما خلال القرون.

الثاني : علم المعاني، وقد ضمّ البحث في تعريفه ودراسة أهم موضوعاته كالخبر والانشاء والتقديم والتأخير والفصل والوصل والقصر والايجاز والاطناب والمساواة.

الثالث : علم البيان، وقد شمل تعريفه ودراسة التشبيه والحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتعريض.

الرابع : علم البديع، وقد تضمن نشأته وأهم المحسنات اللفظية والمعنوية.

وتوزعت هذه الأبواب على ثلاثة فصول دراسية ليكون للطلبة متسع ينصرفون فيه إلى استيعاب الاصول وتذوق النصوص ومعرفة مافيها من فنون.

كتبت البابين : الأول والثاني، وحرر زميلي الدكتور كامل البصير البابين : الثالث والرابع، وكان الالتزام واضحا بالمنهج التحليلي واعتماد النصوص البليغة ووضع التطبيقات والتمرينات في نهاية كل باب ليكون ذلك عونا للطلبة على فهم الاصول وتذوق النصوص، ولم يثقل الكتاب بالتمرينات الكثيرة وانما كان الاكتفاء بما يقرّب الصورة ويخدم الهدف لينطلق الطلبة بعد ذلك إلى رحاب أوسع بعد أن يتزوّدوا بالمعرفة ويألفوا أساليب العرب ويتذوقوا فن القول.

لقد أخذت أبواب هذا الكتاب من القديم أصولها، لان المنهج المقرر يلزم ذلك ، ولانّ فتل القديم فهما أوّل خطوات التجديد، وهذا ما تسعى اليه الدراسة الأ مية ، حتى اذا ما ثقف الطلبة هذا القديم ووجدوا في نفوسهم القدرة على العطاء ساروا في طريق البناء وفي قلوبهم نور من التراث وفي نفوسهم قبس من الجديد.

وبعد فهذا كتاب فيه من القديم أصوله ومن الجديد تطبيقاته ، ولن يكون نافعاً إلاّ بعد ان يحسن الطلبة الانتفاع به، وبعد ان يقوّم الاساتذة مافيه من أود، وما الكمال إلا لله تعالى.

الاول من كانون الثاني ١٩٨١م

الخامس والعشرون من صفر ١٤٠١هـ

الباب الاول
النشأة والتطور

الفصل الاول

التاريخ

المبحث الاول

النشأة والمؤثرات

النشأة :

ان الباحث حينما يتلمس البذور الاولى للبلاغة العربية قبل عهد التدوين والتأليف يجد أن العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية التي أعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ونقده ؛ والامة التي أنجبت الشعراء الفحول والخطباء المصاقع لابدّ أن تعرف المعالم التي يختطها الشعراء ويترسّمها الخطباء، واذا كان كثير من الاحكام النقدية قبل الاسلام لم يصل الينا مع ما وصل من شعر وخطب وأمثال ، فان بعض تلك الاحكام تناقلتها الالسن وتداولتها الكتب، وقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم أصحاب بيان فقال سبحانه وتعالى : «الرحمنُ : علّم القرآنَ : خلقَ الانسانَ ، علّمه البيانَ» (١) ؛ وقال عن حسن كلامهم وشدة أمره وتأثيره في النفوس : «ومن الناس من يُعجبك قولُه في الحياةِ الدنيا» (٢) ؛ ووصف الوليد بن المغيرة القرآن وقال : «والله لقد سمعت من محمد كلاماً ماهو من كلام الانس ولا من كلام الجن، وان له لحلاوةً، وان عليه لطلاوةً، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق» (٣) ؛

ويمكن ان يستدل الباحث على ان العرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية قبل الاسلام بأمرين :

الاول : عقلي لا يمكن إنكاره، وهو انه لا يُصدَّق ان الشعر وصل الى ما وصل اليه في ذلك العهد ، وان الخطابة بلغت ذروتها، وان اللغة اخذت صورتها

---

(١) سورة الرحمن، الآيات ١ – ٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٤.

(٣) في سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٠ : «والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لغدق ، وان فرعه لجناة».

من غير ان يكون هناك عقل مدبر لكل ذلك، ومن غير ان تكون هناك اصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتُكلمون وساروا عليها فيما نظموا أو قالوا؛ ومهما تحدّث الباحثون عن السليقة الصافية والذوق السليم، ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء، فان العقل ليفكر ان يكون ماكان من غير ثقافة ودُرْبة ، وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول:

الثاني : نقليّ وهو ما أثر عنهم وما جاء عن خطبائهم ووصف خطبهم: وقد كان الخطباء يعترون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم، ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر زرّى عليه للذي رأى من دمامته وقصره وقلته، فقال النعمان: «تسمع بالمعيدي لا أن تراه»، فقال : «أبيت اللعن، ان الرجال لا تكال بالقفزان (١) ولا توزن بالميزان، وليست بمسوك يستقى بها (٢)، وانما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه ، ان صال صال بجنان، وان قال قال ببيان» (٣) : وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعراً شريفا سيداً، وكان يحكم وينفر بالاسجاع:

واستدل الجاحظ من ألفاظ «العيي» و «البكي» و «الحصر» و «المفحم» و «الخطل» و «المسهب» على ان العرب قبل الاسلام عرفوا كثيراً من عيوب البلاغة والخطابة، وقال : «وكلام الناس في طبقات كما ان الناس أنفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسمح، والخفيف والثقيل، وكلّه عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا، فان زعم زاعم انه لم يكن في كلامهم تفاضل ولا بينهم في ذلك تفاوت فلم ذكروا العيي والبكيء، والحصر والمفحم، والخطل والمسهب، والمتشدق والمتفيهق، والمهمار والثرثار، والمكثار والهمّار؟ ولم ذكروا الهجر والهذر، والهذيان والتخليط، وقالوا تلقّاعة، وفلان

---

(١) القفزان : جمع قفيز، وهو مكيال.

(٢) المسك : بالفتح وسكون السين : الجلد، وسمي بذلك لانه يمسك فيه الشيء إذا جعل سقاءا.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١٧١، ٢٣٧.

يناهيع في خطبته (١)؟ وقالوا فلان يخطيء في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره؟ ولولا ان هذه الامور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمّي ذلك البعض للبعض الآخر بهذه الاسماء» (٢).

ووصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبرود العصب، وكالحلل والمعاطف وللديباج والوشي وأشباه ذلك. (٣) ووصفوا شعراءهم وأضفوا عليهم ألقابا كالمهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والمتنخل والأفوه والنابغة، وهذه الاوصاف تتصل باحكامهم النقدية وبذوقهم الذي ميزوا به بين شاعر وشاعر.

وكان بعض الشعراء يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل ان يذيعوها بين الناس، واشتهر زهير بن ابي سلمى بالحوليات وتبعه في ذلك الحطيئة وغيره ممن اهتموا بتنقيح الشعر وتجويده، وكان الحطيئة يقول : «خير الشعر الحولي المحكك» وقال الاصمعي : «زهير بن أبي سلمى والحطيئة واشباههما عبيد الشعر لانهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين» (٤). وقال الجاحظ : «وكذلك كل من جوّد في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة» (٥). وقال واصفا هؤلاء الشعراء : «ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (٦) وزمنا طويلا، ويردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه فيجعل عقله زماما على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، اشفاقا على أدبه واحرازاً لما خوّله الله تعالى من نعمته. وكانوا يسمون تلك القصائد : الحوليات، والمقلدات، والمنقحات، والمحكمات، ليصير قائلها فحلا خنذيذاً وشاعراً مفلقا» (٧). وقال : «ومن تكسب

(١) الخطل : ذو الخطل وهو الكلام الفاسد الكثير. المسهب : كثير الكلام. رجل مهمار : كثير الكلام. التلقاعة والتلقاع : كثير الكلام.
(٢) البيان ج ١ ص ١٤٤ – ١٤٥.
(٣) البيان ج ١ ص ٢٢٢.
(٤) الشعر والشعراء ج ١ ص ٧٨.
(٥) البيان ج ٢ ص ١٣.
(٦) كريتا : تاما.
(٧) البيان ج ٢ ص ٩.

بشعره والتمس به صلات الاشراف والقادة وجوائز الملوك والسادة في قصائد السماطين وبالطوال التي تنشد يوم الحفل لم يجد بدا من صنيع زهيرو الحطيئة واشباههما، فاذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود: ولم نرهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد في صنعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضب اقتداراً عليه وثقة بحسن عادة الله عندهم فيه: وكانوا مع ذلك اذا احتاجوا إلى الرأي في معظم التدبير ومهمات الامور ميثوه (١) في صدورهم وقيدوه على انفسهم فاذا قوّمه الثقاف وأدخل الكير، وقام على الخلاص أبرزوه محككا منقحا، ومصفى من الادناس مهذبا» (٢):

ان وقوف الشعراء،عند قصائدهم لينقحوها ويعيدوا النظر فيها يدل على الروح النقدية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون: ومما يتصل بالنقد قبل الاسلام ماكان شائعا من أحكام يتناقلها الشعراء وما كان يدور في اسواق العرب: وفي كتب الادب والنقد كثير منها يتصل بالمعاني واللغة والقافية.

فمن النوع الاول – المتصل بالمعاني – ماروي عن حكومة أم جندب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة الفحل،فقد فضّلت علقمة حينما قال في وصف فرسه:

فأدركهن ثانياً من عنانه ... يمر كمرّ الرائح المتحلب(٣)

على زوجها امرىء القيس الذي قال:

فللزجر ألهوب وللساق درّة ... وللسوط منه وقع أخرج مهذب(٤)

وقد سأل امرؤ القيس أم جندب: بم فضلته عليّ ؟فقالت :فرس علقمة أجود من فرسك. قال :وبماذا؟ قالت : انك زجرت وحركت ساقيك وضربت بسوطك، أما علقمة فقد ادرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضربه بسوط ولم يتعبه(٥):

---

(١) ميثوه : ذللوه.

(٢) البيان ج ٢ ص ١٣ – ١٤.

(٣) الرائح : السحاب. المتحلب : السائل عرقه.

(٤) أخرج : ذكر النعام. مهذب : مسرع.

(٥) الموشح ص ٢٨ – ٢٩.

وماجرى بين النابغة وحسان بن ثابت والخنساء، فقد رُوي أنهم كانوا يضربون للنابغة قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء وتعرض عليه اشعارها وكان أول من أنشده ذات يوم الاعشى، فقال قصيدته التي مطلعها:

مابكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وماترد سؤالي

ثم أنشده حسان بن ثابت:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّق فأكرم بنا خالاً واكرم بنا ابنما

فقال النابغة: أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن أنجبك (١). وأنشدته الخنساء في هذا المجلس قصيدتها:

قذى بعينيك أم بالعين عوّار أم اقفرت مذ خلت من أهلها الدار

فقال لها النابغة: لا والله، لولا ان سبقك أبو بصير، أنشدني آنفا لقلت: انك أشعر الجن والانس. فقال حسان: «والله، لأنا اشعر منك ومن أبيك وجدك». فقبض النابغة على يده ثم قال: يا ابن أخي، انك لاتحسن أن تقول مثل قولي:

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء: «أنشديه»، فأنشدته، فقال: «والله مارأيت أنثى أشعر منك». فقالت الخنساء: «والله، ولارجلاً» (٢).

ومما يتصل باللغة كلمة «الصيعرية» في بيت المسيب بن علس:

وقد اتناسى الهم عند ادكاره بناج عليه الصيعرية مكدم (٣)

فلما سمع طرفة هذا البيت قال: «استنوق الجمل»، لان «الصيعرية» سمة في عنق الناقة لاللبعير (٤).

---

(١) الموشح ص ٨٢، والمصون في الادب ص ٣.
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٣٤٤.
(٣) الناجي : الجمل. الصيعرية : سمة في عنق الناقة. المكدم : الغليظ أو الصلب.
(٤) [illegible] ١١٠، ١٣٣.

ومما يتعلق بالقوافي ماذكروه عن النابغة، فقد قالوا: انه لم يُقْوِ أحد من شعراء الطبقة الاولى الاّ هو في قوله:

أمن آل ميّة رائح أو مغتدِي   عجلان ذا زاد وغير مزوّدِ
زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ

وفي قوله:

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه   فتناولته واتقتنا باليدِ
بمخضب رَخْصٍ كأنّ بنانه   عنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقَدُ

فقدم المدينة فعيب عليه ولم يأبه، وجعلوا يخبرونه وهو لايفهم مايريدون، فقالوا لجارية: اذا صرت إلى القافية فرتلي، فلما قالت: «الغرابُ الاسودُ» و«يُعقَدُ» و«باليدِ» و«مزوّدِ» علم فانتبه فلم يعد اليه، وقال: «قدمت الحجاز وفي شعري صنعة، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس»(١): وقال عمرو بن العلاء: «فحلان من الشعراء كانا يُقويان: النابغة وبشر بن أبي خازم، فأما النابغة فدخل يثرب فغُنّي بشعره فتفطن فلم يعد للاقواء، وأما بشر بن أبي خازم فقال له أخوه سوادة: انك تُقْوي. قال: وما الاقواء؟ قال: قولك:

ألم ترأن طول الدهر يسلي   وينسي مثلما نُسيت جذامُ

ثم قلت:

وكانوا قومنا فبغوا علينا   فسقناهم إلى البلد الشآمِ

فقال: تبينت خطئي، ولست بعائد»(٢):

وذكر ابو هلال العسكري أن القدماء أشاروا إلى الفصل والوصل في الكلام، قال: «وكان أكثم بن صيفي اذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه: افصلوا بين كل معنى منقضٍ، وصلوا اذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض: وكان الحارث

---

(١) الموشح ص ٤٥–٤٦.
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٧٠، والموشح ص ٨٠.

ابن أبي شمر الغساني يقول لكاتبه المرقش: اذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الالفاظ ، فانك اذا حذفت ألفاظك بغير مايحسن أن تحذف به نفرت القلوب عن وعيها، وملّته الاسماع ، واستثقلته الرواة »(١):

وشك بعض الباحثين في هذه الروايات (٢) ، ولكننا مع هذا الشك نقرر ان هذه الروايات تعكس جانباً من فهم العرب للنقد في مرحلة التلوين الاولى ، وليس بعيدا أن تصدر مثل هذه الاحكام قبل الاسلام بعدما رأينا كثيراً من الدلائل التي تؤيدما ذهبنا اليه: يضاف إلى ذلك ان هذه الروابات ليس فيها التعليل القائم على النظرة العلمية لكي ننكرها وانما هي احكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكمون ، معتمدين على الذوق الفطري الذي عرف به العرب: وكان شعراء اليونان بعد ان انتهى عصر الملاحم وازدهر الشعر الغنائي في القرن السادس قبل الميلاد يصدرون بعض الاحكام التي تعبرّ عن رأي ذاتيّ أبعد مايكون عن القاعدة العلمية. ومعنى ذلك أن الشعراء شاركوا في حركة النقد القديم، فلم لاينطبق ذلك على العرب وهم أهل علم ودراية وذوق ورواية، ولهم خطب رائعة وشعر بديع؟

واذا ماانتقلنا إلى العصر الاسلامي رأينا ايمان العربي بالقرآن الكريم واعتناقه الاسلام كان حكما نقديا أدركه بذوقه السليم وفطرته الصافية، ورأينا الرسول الكريم محمداً — صلى الله عليه وسلم — يعنى عناية عظيمة بأحاديثه وخطبه، وقد أثر عنه انه كان يقول «لايقولنّ أحدكم: خبثت نفسي ، ولكن ليقل : لقست نفسي » ، كراهية أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه(٣)؛ وكان يستمع الى الشعر ويقول: «ان من البيان لسحرا» :وكان الخلفاء الراشدون والصحابة يستمعون إلى الشعر ويبدون رأيهم فيه؛

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٤٤٠.

(٢) ينظر تأريخ النقد الادبي عند العرب ص ١٩ ، ودروس في البلاغة وتطورها ص ١٠ .

(٣) الحيوان ج ١ ص ٣٣٥ .

واذا مانظرنا إلى العصر الاموي رأينا الحياة الادبية تزدهر ، وكان الخلفاء يعقدون المجالس ويستمعون إلى الشعراء ويعلقون على بعض مايسمعونه ، ومن ذلك ان ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك بن مروان قصيدته التي يقول فيها :

يأتلق التاجُ فوق مفرقِهِ على جبين كأنّه الذهب

فلما سمع عبد الملك ذلك غضب وقال له : وقد قلت في مصعب بن الزبير :

انَّما مصعبٌ شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظلماء

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم ، وأعطيتني من المدح مالا فخر فيه وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة(١).

وكان المؤدبون يقومون بدور عظيم في تعليم اللغة وأدبها ورسم القواعد العامة التي تفضي إلى اتقان اللغة وتذوقها : وكان هؤلاء المؤدبون يخوضون في موضوعات كثيرة ، وليس من شك في ان الفصاحة والبلاغة كانت من تلك الموضوعات .

وشهد القرن الثاني للهجرة حركة ادبية واسعة ، وكانت الحواضر تزخر بالعلماء ، وبلغت حركة التدوين والتأليف ذروتها في العصر العباسي الاول ، وظهرت كتب التفسير واللغة والادب والتأريخ تحمل تراثا ضخما حافلا بكل طريف ، وكانت البلاغة احد العلوم التي اهتم بها العرب منذ عهد مبكر ، وقد دفعتهم إلى العناية بها أهداف ومؤثرات كثيرة :

الأهداف :

ان الحياة الجديدة التي عاشها العرب بعد ان خرجوا من جزيرتهم دفعتهم إلى العناية باللغة والادب ، لأنهم وجدوا تحديات كثيرة تعرضت لها العربية بعد أن دخل في الاسلام قوم أرادوا هدمه وتقويض دولة العرب . وكانت الجهود العظيمة التي بذلها المخلصون ايذانا بظهور علوم اللغة التي اخذت تتطور جيلا بعد جيل حتى أصبحت سامقة لاتقدر عليها هوج الاعاصير .

---

(١) نقد الشعر ص ٢١٤ .

وقد تظافرت أسباب وأهداف كثيرة دفعت العرب إلى الخوض في الدراسات البلاغية ، ويمكن تلخيصها في :

١ – الغرض الديني :

وهو خدمة القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدّى الانس والجن، ولكي يبرهنوا على اعجازه ويفهموا آياته واسلوبه ليستنبطوا الاحكام منه اتجهوا إلى البلاغة باحثين فنونها وموضحين اقسامها لتكون لهم عونا على فهم القرآن ، وكان هذا الغرض من اهم الاهداف التي دفعتهم الى البحث والتأليف فيها ، وقد أشار ابو هلال العسكري إلى هذا الهدف السامي بقوله : «اعلم – علّمك الله الخير ودلّك عليه وقيضه لك وجعلك من اهله – أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله – جلّ ثناؤه – علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت اعلام الحق وأقامت منار الدين ، وازالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها . وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل علم العربية وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ماخصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وماشحنه من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها . وإنما يُعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته وسلاسته ونصاعته وكمال معانيه وصفاء ألفاظه. وقبيح لعمري بالفقيه المؤتم به ، والقارىء المُهتدى بهديه ، والمتكلم المشار اليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه ، وبالعربي الصليب والقرشي الصريح أن لايعرف اعجاز كتاب الله – تعالى – إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي ، أو انه يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي » فينبغي من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله – تعالى –

ومعرفة عداه والتصديق بوعده ووعيده إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جلّ اسمه» (١).

٢ — الغرض التعليمي:

وهو تعلم الناشئة اللغة العربية ومعرفة أساليبها بعد أن اتصل العرب بأمم شتى وأدى ذلك الاتصال إلى فساد اللغة ودخول اللحن فيها. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من المسلمين كانوا بحاجة إلى تعلم العربية وبلاغتها ليفهموا القرآن الكريم وليعيشوا في ظل دولة لغتها العربية. وكانت المقدرة الكتابية في كثير من الأحيان السبيل الموصل إلى المناصب الرفيعة وكان على من يسعى إلى تسنمها أن يكون كاتباً له في الأدب وفنونه يد طولى وله أسلوب رفيع. فلكي يتعلم العربي الناشىء في بيئة امتزجت فيها اللغات بلغته ويصبح قادراً على التعبير الحسن والنظم الرائق وانشاء الرسائل، ولكي يتعلم المسلم لغة دينه ولغة الدولة التي يعيش في ظلها، ولكي يصل الناس إلى أرقى المناصب وأعلى الرتب — كان عليهم جميعاً أن يتقنوا العربية، ولا يتم ذلك الإتقان إلا بمعرفة ألفاظها وتراكيبها ومعانيها وأساليبها، والبلاغة إحدى السبل التي توصل إلى هذه الغاية وتخدمها.

٣ — الغرض النقدي:

وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازنة بين القصائد والخطب والرسائل. والبلاغة تعين الناقد كثيراً لأنها تقدم له الآلة التي تعينه على الفهم والحكم، ولذلك نجد القدماء يعنون عناية كبيرة بها، ويؤلفون الكتب فيها؛ وقد أشار العسكري إلى الهدفين التعليمي والنقدي بقوله: «ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة، منها ان صاحب العربية اذا أخلّ بطلبه وفرّط في التماسه ففاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته عفّى على جميع محاسنه وعمّى سائر فضائله، لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح،

(١) كتاب الصناعتين ص ١ — ٢

وشعرنا در وآخر بارد ، بان جهله وظهر نقصه . وهو ايضا اذا اراد أن يصنع قصيدة أو ينشيء رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر واستعمل الوحشي العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل كما فعل ابن جحدر في قوله :

حلفت بما أرقلت حوله همرجلة خلقها شيظم
وماشبرقت من تنوفية بها من وحى الجن زيزيم (١)

وانشده ابن الاعرابي فقال: ان كنت كاذبا فالله حسيبك :وكما ترجم بعضهم كتابه إلى بعض الرؤساء : «مكركسة تربوتا ومحبوسة بسريتا » فدل على سخافة عقله واستحكام جهله، وضره الغريب الذي اتقنه ولم ينفعه ، وحطه ولم يرفعه ، لما فاته هذا العلم وتخلف عن هذا الفن:

واذا اراد ايضا تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذا العلم ساء اختياره وقبحت آثاره فيه ، فأخذ الرديء المرذول وترك الجيد المقبول ، فدل على قصور فهمه وتأخر معرفته وعلمه «(٢):

ويتصل بهذا الغرض رواية الادب ومعرفة الجيد الذي يُروى والرديء الذي ينبغي ان يطرح؛ وقد اشار العسكري إلى ذلك بقوله : «وقد قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله، كما ان شعره قطعة من علمه: وماأكثر من وقع من علماء العربية في هذه الرذيلة، منهم الاصمعي في اختياره قصيدة المرقش:

هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حياً ناطقا كلم

ولااعرف على اي وجه صرف اختياره اليها وماهي بمستقيمة الوزن ولاموفقة الروي ولا سلسة اللفظ ولاجيدة السبك ولامتلائمة النسج ، وكان المفضل يختار من الشعر

---

(١) أرقلت : أسرعت. الهمرجلة : الناقة. الشيظم : الطويل الجسم. شبرقت : عدت. التنوفية : المفازة والارض الواسعة. الوحي : الصوت الخفي. زيزيم : صوت الجن.

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢ – ٣.

مايقل تداول الرواة له ويكثر الغريب فيه، وهذا خطأ من الاختيار، لان الغريب لم يكثر في كلام الا أفسده وفيه دلالة الاستكراه والتكلف »(١) :

وكانت هذه الاهداف دافعا قويا حفزهم إلى الخوض في دراسة البلاغة والتأليف فيها ، وكانت هذه الاهداف غرض المؤلفين جميعا ، ولانكاد نجد كتابا من كتب البلاغة واعجاز القرآن يخلو من الاشارة اليها ، ولعل مانقلناه من مقدمة «كتاب الصناعتين» لابي هلال العسكري يوضح الغرض ويخدم الفكرة ويعين على تصور الدوافع الكثيرة التي كان لها الفضل الكبير في ظهور كتب البلاغة.

وقد تظافرت جهود كثيرة على وضع أسس البلاغة وأصولها ، ويمكن ان نتلمس ذلك في المفسرين والاصوليين، واللغويين والنحاة ، والشعراء والكتّاب، والفلاسفة والمتكلمين. وكانت كل طبقة من هؤلاء تتفق في كثير من الاسس وتلتقي في أهداف واضحة المعالم، وان كان رجالها يختلفون في تصورهم للبلاغة

المؤثرات :

أثرت في نشأت البلاغة وتطورها عدة عوامل أهمها:

القرآن الكريم :

كان للقرآن الكريم ذا أثر عظيم في البلاغة ، وقد شغل الناس به وأخذوا يتدارسونه ويوضحون معانيه ويتحدثون عن ألفاظه وتراكيبه ومافيه من فنون وقف العرب أمامها مبهورين. وكانت البلاغة من العلوم التي أولوها عناية كبيرة وجعلوها «أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ – بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه، لان الانسان اذا اغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وماشحنه به من الايجاز البديع» (٢) وذهبوا أبعد من ذلك فقال عمرو بن عبيد عن البلاغة انها «مابلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، ومابصرّك بمواقع رشدك وعواقب غيك»(٣).

(١) كتاب الصناعتين ص ٣.

(٢) كتاب الصناعتين ص ١.

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٤.

وكان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية ، وكانت آياته البينات الشاهد البلاغي الرفيع . وكانت احدى آياته مدعاة إلى ان يؤلف أبو عبيدة «مجاز القرآن». يقول : «أرسل الي الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج اليه سنة ١٨٨هـ ، فقدمت الى بغداد واستأذنت عليه فاذن لي ، فدخلت عليه وهو في مجلس له طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه ، وفي صدره فرش عالية لايُرتقى اليها إلاّ على كرسي وهو جالس عليها فسلمت عليه بالوزارة ، فردّ وضحك واستدعاني حتى جلست اليه على فرشه ، ثم سألني وألطفني وباسطني وقال : أنشدني ، فأنشدته فطرب وضحك ، وزاد نشاطه . ثم دخل رجل في زي الكتّاب له هيئة فأجلسه الى جانبي وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه : فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا ، وقال لي : اني كنت اليك مشتاقا ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك اياها ؟ فقلت : هات . قال :

قال الله - عزّ وجل - : «طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين» (١) ، وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت : انما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنّنةٌ زُرْقٌ كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم اوعدوا به . فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج اليه من علمه . فلما رجعت الى البصرة عملت كتابي الذي سميته «المجاز» (٢).

وانتهى ابن خلدون إلى أن ثمرة علم البلاغة «إنما هي في فهم الاعجاز من القرآن، لأن اعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة ،

---

(١) سورة الصافات، الآية ٦٥.

(٢) معجم الادباء ج ٧ ص ١٦٦-١٦٧.